عندما يتحدث الحجر؟
السياسة والعمارة

أ.د. خالد عزب

رئيس قطاع المشروعات والخدمات المركزية
مكتبة الإسكندرية
جمهورية مصر العربية

مُقَدِّمَة

هل يتحدث الحجر أم أنه أصم لا يتكلم ؟ لاشك أن مكتشفات العلم الحديث جعلت عالم الأحجار عالمًا من المكونات الدقيقة المركبة المتنوعة، لكن في عالم العمارة درجنا على أن ننظر للحجر على أنه جماد تم تشكيله بشكل وظيفي وجمالي ليخدم منشأً معماريًا، أو ليقدم تحفة فنية، لكننا هنا سنحاول إقامة حوار مع الحجر سنجعله يتحدث لنا بلغة تعبر عن تفسيره لعلاقته مع السلطة ومدى انعكاس السلطة على تشكيله، إننا سنكتشف إنه سجل حافل للعلاقة بين قوة السلطة وصولجانها، وبين العصر ومقتضياته ومعطياته السياسية والفكرية والثقافية والاجتماعية، ولأن العمارة أفضل الأمثلة للتدليل على ما نذهب إليه في هذا الشأن، فسوف تكون العمارة الإسلامية هي الساحة التي سنجرى عبرها هذا الحوار مع الحجر.

كلمات مفتاحية:

العمارة الإسلامية، السياسة والعمارة، الدلالات المعمارية، قبة الصخرة، مدينة الإسكندرية

بسؤال الحجر ما هي طبيعة علاقتك بالسلطة وكيف تعبر عنها؟ أجاب الحجر إجابة شافية مطولة علينا، فذكر أن هذه العلاقة تتكون من ثلاث مستويات، تتدرج من البساطة إلى العمق وهى كما يلي:-

(١)

- **المستوى الأول: العمارة كشاهد سياسي**، وهو يمثل أبسط نماذج هذه العلاقة، في هذا المستوى تكون العمارة سجلاً للعديد من الأحداث السياسية التي مرت عليها، أو حدثت في المنشأ المعماري، أو تركت أثرها عليها، ومن أمثلة ذلك باب زويلة أحد أبواب القاهرة التاريخية الذي شُيد في العصر الفاطمي، ليكون أحد أبواب حصن القاهرة مقر حكم الفاطميين في العاصمة المصرية، وكان ذا وظيفة حربية، إذ أنه كان يغلق على الحصن الذي كان يضم قصور الفاطميين ومسجدهم الجامع وجندهم ومواليهم.

ولكن منذ سنة (٦٥٨ هـ/ ١٢٥٩م)، حين وسط المظفر قطز أحد سلاطين المماليك أحد رسل التتار بظاهر باب زويلة، ثم علق رؤوس رسل التتار الأربعة على باب زويلة. اكتسب الباب منذ ذلك الوقت وظيفة سلطوية سياسية خاصةً مع تلاشى دوره الحربي، وتوالت حوادث الإعدام عليه، منذ ذلك الحين حتى القرن التاسع عشر الميلادي، وأعدم السلطان المملوكي طومان باى آخر سلاطين المماليك على هذا الباب. وكان هذا الإعدام رمزًا لبداية عصر العثمانيين في مصر ونهاية عصر المماليك (١٢٥٠ – ١٥١٧م). وفى العصر العثماني وعصر محمد على توالت عمليات تنفيذ حكم الإعدام على هذا الباب حتى عصر الخديوي إسماعيل. كان لجلوس متولي الحسبة في القاهرة عند هذا الباب أثره في تغير اسمه لدى العامة إلى باب المتولي، وبمرور الوقت نسى الناس السبب الحقيقي لهذه التسمية، وتصوروا أن المقصود بالمتولي أحد الأولياء الصالحين، ومن ثَمَّ ظل هذا الباب يتقرب إليه بعض العامة بربط الخرق بمساميره.

كما يسعى السلاطين بإثبات انتصاراتهم على عمائرهم بصورة أو بأخرى، لتكون شاهدًا على هذه الانتصارات، ومن ذلك تعليق خوذة ملك قبرص على باب مدرسة السلطان الأشرف برسباى في القاهرة، والتي انتهى من تشييدها سنة (٨٢٩ هـ/ ١٤٢٥م)، وهى السنة التي فتحت فيها قبرص، وظلت هذه الخوذة باقية حتى القرن (١١هـ/ ١٧م).

(٢)

- المستوى الثاني: الرمزية السياسية للعمارة، وهو يمثل أحد جانبي البنية العميقة. في هذا المستوى تجسد العمارة قوة الدولة وتوجهاتها السياسية. ومثل هذا النوع من العمائر شاع في العمارة الإسلامية. تتمثل هذه الرمزية في عدد من المدلولات المعمارية، يحمل بعضها مضمونًا حضاريًا وبعضها الآخر مضمونًا سلطويًا سياسيًا، ويجمع بينهما أحيانًا بعض العمائر ذات الدلالات المتعددة. تُعَدّ قبة الصخرة والحرم القدسي الشريف حولها أبرز العمائر التي تحمل مضامين حضارية يعود تشييد القبة إلى العصر الأموي، الذي شهد نزاعًا حضاريًا بين الدولة الأموية والدولة البيزنطية على السيطرة على العالم القديم، واتخذ هذا النزاع صورًا متعددة. منها تعريب طراز أوراق البردي التي كانت تصنع في مصر. وتعريب للنقود في إطار سياسة رسمها عبد الملك بن مروان الهدف منها إرضاء الشعور الديني والسياسي للمسلمين، فضلاً عن أن النقد العربي الخالص يعبر عن سيادة الدولة وخروجها من تحت عباءة النفوذ الاقتصادي البيزنطي، لذا اتجه عبد الملك إلى الاستقلال الاقتصادي بتعريب النقود.

اتجه عبد الملك بن مروان في إطار هذا المخطط الشامل إلى العمارة التي ترمز إلى سيادة الدولة واتجاهها الفكري، ففي القدس تبنى مشروعًا ذا طابع سياسي ديني حضاري، يرتكز على الاهتمام بعمارة الحرم القدسي الشريف خاصةً قبة الصخرة والمسجد الأقصى، لارتباط هذا الحرم بالعقيدة الإسلامية فهو أول القبلتين، وفيه صلى الرسول (ﷺ) بالأنبياء وإليه كان الإسراء ومنه كان المعراج. ولما كانت عمارة الحرم آنذاك بسيطة لا تتناسب مع ما حولها من كنائس، خاصةً كنيسة القيامة المقدسة لدى المسيحيين، ومع ما قد تحدثه عمارة الكنائس في نفوس بعض المسلمين، ورغبة عبد الملك في إثبات الهوية الحضارية الجديدة للمدينة، تبنى مشروع عمارة قبة الصخرة والمسجد الأقصى.

ويلفت الانتباه من هذا المشروع قبة الصخرة، إبراز آثار الحرم، فهي تُعَدّ أول عمل معماري واع لعظمته بل متباه بها، انتهى من بنائها سنة (٧٢ هـ/ ٦٩٢م). وهى تُرى من مسافات بعيدة، وهى مبنية فوق صخرة مقدسة، حولها ممران يدوران حولها بمسقط مثمن، شامخة في الهواء في مركز الحرم القدسي على تل من تلال القدس. وهذه القبة ذات التصميم الهندسي الذي يصل لحد الكمال والروعة كانت مزخرفة بالفسيفساء على كل سطوحها داخلاً وخارجًا، وكانت ومازالت تبهر الرائي حتى أن كثيرًا ممَنْ رأوها لم يملكوا أنفسهم من إضفاء كل صفات البريق واللمعان عليها، مهملين في الوقت نفسه، للأسف، أن يخبرونا ماذا كانت تمثل تلك اللوحات الفسيفسائية؟ ولا نستطيع أن نحكم على موضوعات فسيفساء القبة حكمًا كليًا؛ لأن جزءًا كبيرًا من الفسيفساء الأموية فُقدَ، ولكننا نملك بعض الشواهد على هذه الموضوعات من فسيفساء الرواق المثمن الداخلي، يمكن عند ربطها بدقة عمارة القبة الانتهاء إلى الرمزية السياسية لها.

مخطط القبة ليس غريبًا بالدرجة التي يبدو بها اليوم، يرى بعض المستشرقين وعلماء الآثار العرب أن تخطيط قبة الصخرة ذو أصل روماني يعرف بمخطط ضريح الشهيد، وهو عبارة الطواف حوله، وظيفته إذن طقوسية طوافية، وهو لهذا السبب استعمل في الفترة المسيحية المبكرة في بلاد الشام، وفى مجمل الأراضي البيزنطية، في عمارة العديد من الكاتدرائيات المهمة، ككاتدرائية بصري في حوران التي ما تزال بقاياها قائمة إلى اليوم، وكنيسة القيامة في القدس نفسها، وهما الاثنتان تعودان إلى فترة الحكم البيزنطي في عهد جستينيان (حكم ٥٢٧ ـ ٥٦٥م). ولكن قبة الصخرة أكثر هذه المخططات توازنًا هندسيًا، وهى من دون أي شك قد قصد بها التمايز والتنافس مع قبة قبر المسيح في كنيسة القيامة التي تطل عليها من أعلى جبل موریاه.

ويرى الدكتور فريد شافعي أن تخطيط قبة الصخرة لا يطابق أي تخطيط لنماذج العمائر البيزنطية في منطقة بلاد الشام أو في غيرها، بل هو تحوير واقتباس منها ليتفق مع الغرض الذي شيد من أجله البناء وهو أن يحيط بالصخرة، وهى البقعة المباركة التي عرج منها محمد (ﷺ) إلى السماء حين أسرى به ربه من مكة المكرمة إليها. لذا فقد روعي في التخطيط أن يوفر غرض تعيين تلك البقعة، ثم غرض الطواف حولها للتبرك بها. وهو أمر يختلف تمامًا عن الذي شيدت من أجله تلك العمائر الدينية البيزنطية ذات التخطيطات المشابهة التي عادة ما توجه نحو الحنية. ولا تتعدد فيها المداخل كما تعددت في قبة الصخرة، ومهما يكن من أمر، فان تخطيطات تلك العمائر الدينية البيزنطية ليست ابتكارات بيزنطية أو سورية، بل كانت في الأصل تخطيطات رومانية دينية سابقة، أخذت بدورها من أصول إغريقية.

وتُعَدّ فسيفساء قبة الصخرة من الناحية الحرفية امتدادًا للفسيفساء البيزنطية في بلاد الشام والدولة البيزنطية، ولها العديد من الأمثلة في كنائس بلاد الشام والعاصمة القسطنطينية، وأشهرها آيا صوفيا، وكنائس سالونيكا الإغريقية، غير أن فسيفساء قبة الصخرة ذات مواضيع معقدة في أصولها وكيفية اختيارها ومعانيها، فعلى خلاف النماذج البيزنطية التي تتشارك وإياها في التقنية، تركز لوحات قبة الصخرة على المواضيع اللاتمثيلية، وتحصرها بالكتابات القرآنية والتسجيلية وبالتوريق والزخارف النباتية، بعض الأشكال الغامضة اليوم، والتي ربما

تكون تحويرًا لتيجان ملوك ومستلزمات وظيفتهم من صولجانات ومجوهرات وما شابهها.

إننا هنا أمام تساؤلات عديدة تطرح نفسها عن هذا المبنى ورمزيته، إن التوجهات السياسية والإعلامية والعقيدة تبرز في الآيات القرآنية المختارة بدقة، وفى تركيز وضع صور تيجان الملوك في الرواق حول القبة وبمواجهتها فالنص القرآني يحتوى على كل الآيات التي تتكلم عن المسيح في موقعه الإسلامي المختار كنبي مرسل. والتيجان تبدو أشبه ما يكون بالتيجان الحقيقية للملوك المغلوبين، التي كان أباطرة الرومان والبيزنطيين يضعونها في معابدهم وكنائسهم كعلامات نصر ورمز إيمان بأفضلية معتقدهم. وبالتالي يمكن هنا أن ننظر إلى هذين العنصرين الزخرفيين على أنهما بالنسبة لبناة قبة الصخرة وسيلتا دعاية لدينهم ولدولتهم المنتصرين، خاصةً إذا تذكرنا أن قبة الصخرة قد بنيت في القدس التي كان أغلب سكانها المسيحيين ما زالوا يدينون بالولاء لإمبراطور القسطنطينية البيزنطي، في وقت كانت الدولة الأموية فيه في خضم صراع مرير مع البيزنطيين في شمال بلاد الشام.

إذن القبة مبنى معماري ذا رمزية سياسية ينبئ في القدس عن رغبة الدولة الأموية في بث حضارة جديدة تعبر عن أتباع الدولة المقيمين في المدينة، ويوجه رسالة إلى الآخرين عن مدى قوة الدولة ومضمون رسالتها. وظلت قبة الصخرة بلونها الذهبي، رمزًا لمدينة القدس، يعلوها الهلال الذي يوازى اتجاه القبلة. وعندما استولى الصليبيون على القدس نزعوا الهلال من فوق قبة الصخرة، وأقاموا مكانه صليبًا من الذهب. وعندما استرجع صلاح الدين القدس مرة أخرى سنة (٥٨٣ هـ/ ١١٨٧م) تسلق بعض المسلمون القبة واقتلعوا الصليب، وأعادوا الهلال إلى مكانه، هكذا شكل الموقع الذي شيدت عليه قبة الصخرة جانبًا من الرمزية السياسية.

(٣)

- المستوى الثالث: العلاقة الفكرية بين السياسة والعمارة. هذه العلاقة هي التي تحكم طبيعة العمارة وموضوعاتها وحركيتها وتخطيطها. وهى تنبع من التوجه السياسي للسلطة، هذا التوجه يكون أيدولوجيًا، ينعكس على العمارة في صور متعددة، وهو لا يحدث دفعة واحدة، بل يطل على العمارة القائمة على مراحل حتى يكسبها عند التحول من نمط إلى نمط بتغير السلطة شخصية جديدة، تعرف عند الأثريين والمعماريين بالطراز المعماري.

تنشأ السلطة السياسية عادة من حاجة البشر إلى التجمع، فالإنسان مدني بطبعه أي لابد له من الاجتماع الذي هو المدنية، وهى في اصطلاح ابن خلدون تعنى العمران. فسر ابن الأزرق، ما ذكره ابن خلدون في هذا الشأن بقوله أن "الإنسان مدني بالطبع أي لابد له من الاجتماع الذي هو المدنية عندهم . الفلاسفة . ليحفظ به وجوده وبقاء نوعه إذ لا يمكنه انفراده بتحصيل أسباب معاشه". وتحدث ابن تيميه عن الاجتماع المدني. وقال "إن بني آدم لا تتم مصلحتهم في الدنيا ولا في الآخرة إلا بالاجتماع والتعاون، التعاون على جلب منافعهم والتناحر لدفع مضارهم" وينهى كلامه بقوله: "ولهذا يقال إن الإنسان مدني".

مما سبق نرى؛ أن الاجتماع الإنساني فطرة مجبول عليها الإنسان للحصول على منافعه في الدنيا بدأت بالعجز الفطري والذي دفع إلى الخضوع للخالق ومن ثَمَّ البحث عن الرزق، ثم التعاون لسد حاجات البعض للبعض، لتنتهي إلى اتخاذ المدن، وهى الصورة الإنسانية للاستقرار المؤقت الذي يدوم بدوام الحياة، والإنسان عند بداية ظهوره على الأرض تعاون مع أخيه الإنسان فقامت الحضارات، وظهرت الزراعة والقرى والمدن التي تشكل منها أقاليم ثم من الأقاليم دولة. هكذا كان الحال في حضارتي مصر والعراق.

هذا ما عبر عنه القزويني عند حديثه عن ضرورة المدن بقوله: "إنه عند حصول الهيئة الاجتماعية لو اجتمعوا . يقصد البشر . في صحراء لتأذوا بالحر والبرد والريح، ولو تستروا بالخيام والخرقاهات لم يأمنوا مكر اللصوص والعدو، ولو اقتصروا على الحيطان والأبواب كما ترى في القرى التي لا سور لها، لم يأمنوا صولة ذي البأس، فألهمهم الله تعالى اتخاذ السور والخندق والفصيل، فحدثت الأمصار والمدن والقرى، لما أرادوا بناء المدن، أخذوا آراء الحكماء في ذلك، فالحكماء اختاروا أفضل ناحية في البلاد، وأفضل مكان من السواحل والجبال ومهب الشمال؛ لأنها تفيد صحة أبدان أهلها وحسن أمزجتها، واحترزوا من الآجام والجزائر وأعماق الأرض، فإنها تورث كربًا وهرمًا.

واتخذوا للمدن سورًا حصينًا، وللسور أبوابًا عدة حتى لا يتزاحم الناس بالدخول والخروج، بل يدخل ويخرج من أقرب باب إليه. واتخذوا لها قهندزا لمكان ملك المدينة والنادي لاجتماع الناس فيه، وفى البلاد الإسلامية المساجد والجوامع والأسواق والخانات والحمامات، ومراكض الخيل، ومعاطن الإبل، ومرابض الغنم، وتركوا بقية مساكنها لدور السكان، فأكثر ما بناها الملوك العظماء على هذه الهيئة، فترى أهلها موصوفين بالأمزجة الصحيحة والصور الحسنة، والأخلاق الطيبة، وأصحاب الآراء الصالحة والعقول الوافرة، واعتبر ذلك بمن سكنه لا يكون كذلك مثل الديالم والأكراد، والتركمان وسكان البحر في تشويش طباعهم وركاكة عقولهم واختلاف صورهم، ثم اختصت كل مدينة لاختلاف تربتها وهوائها بخاصية عجيبة، وأوجد الحكماء فيها طلسمات غريبة، وأحدث بها أهلها عمارات عجيبة، ونشأ بها أناس فاقوا أمثالهم في العلوم والأخلاق والصناعات".

وحديث القزوينى يحمل العديد من الدلالات المعمارية والتي تتعلق بتكوين ارتباط العمارة بالسلطة، فعندما تكون الهيئة الاجتماعية تتشكل المدن، التي تحتاج إلى سور يوفر لها الأمن، وأشار إلى القيمة الحضارية لحياة المدينة وما تتميز به عن غيرها، وتميز المدن عن بعضها. وفى هذا إدراك مبكر للفروق بين المدن سواء كانت طبيعية أو ناشئة عن أنشطة ساكنيها. ويظهر من كلام القزوينى تأثره بنمط مقر الحكم في مدن أواسط آسيا، حيث أنه ولد في قزوين وطاف بهذه المنطقة وبلاد فارس والعراق (ويطلق على مقر الحكم هناك القهندز)، وهو عبارة عن قلعة داخل المدينة قد تكون على تبة جبليه منفصلة، أو سور يحيط بقصر الحكم والدواوين يتوسط المدينة، بينما يحيط بالمدينة ككل سور كبير، وأشهر الأمثلة على ذلك في مدينتي بخارى وسمرقند. وفرق القزوينى بين المدن الإسلامية وغير الإسلامية من حيث التكوين الداخلي.

وهذا يعنى أن هناك ترابطًا تلازميّا بين المدينة والعمارة والسلطة الحاكمة، وهى مكونات تتكامل مع بعضها، وتؤثر في بعضها، وربط بناء المدن بالتطور الحضاري للإنسانية، وبوجود ملوك عليها يتولون بنائها. أو حكام لها يقومون عليها، فيبنون الأسوار والمرافق العامة. وفى ضوء هذه العلاقة نستطيع أن نرى الصيغة التي تربط بين مكوناتها، هذه الصيغة عادة لا تكون مرئية بصوره مباشرة؛ لأنها الفكر الذي يشكل المجتمع. نرى هذا منذ وقت مبكر في تاريخ الإنسانية، حيث ارتبط اصطلاح السياسة (Polis) بمعنى المدينة ونسب إلى الاصطلاح الإغريقي (Politiea) بمعنى اجتماع المواطنين وممارستهم شئون الحكم والسلطة في إطار دولة المدينة، وهذا ما كان يتم في أثينا حيث نشأ الاصطلاح، كان ينقص أثينا الكثير من مظاهر الراحة المادية، مقارنة بكبريات المدن، فقد كانت مدينة للمزارعين الذين يتوجهوا إلى أراضيهم للعناية بها، تناولت أثينا السلطة، بطريقه مثاليه، فكان يتم اختيار ممارسي السلطة بالقرعة من بين الذكور، وعندما كانت تنشأ الحاجة الماسة إلى محترفين لإدارة شأن من شئون المدينة، كان المختارون بالقرعة يعينون مجالس من المحترفين لإدارة الأمور الفنية كالإدارة المالية أو بناء أحواض السفن. وتتخذ القرارات المصيرية بالنسبة لمدينة على يد مجلس الجماهير الذي يضم كل من له حق التصويت في المدينة.

وقامت إلى جانب ذلك منشآت معمارية أثرت الحياة والمشاركة الحياتية لأهل أثينا، مثل الأكروبول الذي يشرف على المدينة. وفى مهرجان الباناثينيا (Panathenea) كان يتجمع الأثينيون لتقديم الهدايا للربة أثينا. ولقد كان المسرح الأثيني، وهو شبه دائرة هائلة من الدرجات التي نحتت في جبل منحدر متنفسًا للمشاركة بالمدينة، إذ شهد عروض مسرحية تعكس طبيعة هذا المجتمع إذ كان المشاهد والممثل يتبادلان الأدوار. وكان هذا مما يعمق الوعي الخاص والتعبير الحر. لعب المسرح في أثينا دورًا سياسيًا مهمّا حيث عكس واقع المجتمع وعمقًا من المشاركة الاجتماعية لأهل المدينة، وبرز هذا الدور أثناء الغزو الاسبرطي لأثينا حين قدم أريستوفانس مسرحية أهل أرخانيا (The archarnians) التي قام بطلها بعقد سلام خاص مع العدو، تمثل أرسطو مدينته الفاضلة من خلال حياة أهل أثينا التي جمعت بين العمل والمشاركة الشعبية التي تتطلب وقت فراغ بقوله "إن المدينة يجب أن تكون على نحو يمكن سكانها من العيش مع الاستمتاع بوقت الفراغ باعتدال وحرية". كان أرسطو أقل انبهارًا من أفلاطون بالأشكال المثالية، وأشد اهتمامًا بالمسار والهدف والنمو والإمكان بالنسبة للمدينة، وهو ما أعطى رؤيته درجه من الحيوية.

كان من المتوقع أن يتأثر الإسكندر الأكبر أشهر تلاميذ أرسطو بأستاذه، حين شيد سبعين مدينة أطلق على معظمها اسم الإسكندرية، كتب الشهرة منها للإسكندرية المصرية، التي شيدها الاسكندر لتكون عاصمة للحضارة الهلينية في مصر. اتبع الإسكندر في تخطيط هذه المدن صورة أقرب لمدينة أفلاطون. كان أرسطو في دراسته للمدينة الفاضلة، أشد تقديرًا للتنوع والتعدد والاحتياجات المحلية الخاصة من أستاذة أفلاطون. إن مدينة أفلاطون المثالية هي بمثابة المطلق الهندسي، قوامها (٥٠٤٠) مواطنًا و(٥٠٤٠) قطعة أرض، وثلاث طبقات من الناس تتعلم وتعيش منفصلة، والمدينة مقسمة إلى اثني عشر قسمًا ينفرد كل منها بآلهة ومعبده، ويمتد كل بيت منها كالسور (وتتخذ المدينة هيئة المسكن الواحد) كل ما فيها –باختصار- منتظم وموحد. نشأت هذه الرؤية الأفلاطونية من إعجابه بالانضباط والتنظيم العسكري الإسبرطى ولعلها الجذر الذي اشتقت منه فكرة النظام التي خضعت لها الدولة ومن ثَمَّ المدينة في الفكر الأوربي المعاصر. وتركت آثارها بصورة واضحة على المدينة الغربية.

صمم الإسكندر مدينته الإسكندرية المصرية، بعد أن ربط بينها وبين الجزيرة التي تتقدمها على شاطئ البحر بلسان فشق الطرق العريضة بها على شكل مستطيل متشابك، تمتد الطرق الطويلة منها شرقًا وغربًا بحذاء اللسان. أما الطرق القصيرة فتمتد شمالاً وجنوبًا من البحر إلى البحيرة. ويصل أتساع الشوارع ما بين (١٨)، (١٩) قدمًا، أما الشارع الرئيس الممتد شرقًا وغربًا، وهو شارع كانوبيس، فلعله كان يصل في اتساعه إلى مائة قدم، وهكذا نجد أن كل شيء صمم لضمان الحركة المنسابة المباشرة. لقد كان الهدف أن تكون الإسكندرية مثلاً يُحتذى في الفاعلية والبساطة الواضحة، فكانت الإسكندرية المثل الأعلى لحاكم سيطر على العالم، ويريد أن يظهر أتساع سلطاته وانتظامه، وأنموذجًا لقائد أجنبي يخشى التهديد المحتمل من جانب أحياء وطنية تحميها شوارع ضيقه ملتفة.

لقد عكست الإسكندرية رغبة السلطة في السيطرة عليها، بل وزرعت الإبهار والرهبة في نفوس زائريها، ومثل ذلك نص ذكره الروائي اليوناني (Achhilles Tatius) أخيل تاتيوس "الذي زار المدينة في أوج ازدهارها حيث قال: "بلغنا الإسكندرية بعد رحلة استغرقت ثلاث أيام، ودخلتها من بوابة يقال بوابة الشمس وبهرني على التو جمال المدينة الأخاذ الذي ملأ عيني بالبهجة. فقد كان هناك صفان متوازيان من الأعمدة يمتدان في خط مستقيم، من بوابة الشمس إلى بوابة القمر (وهما المعبودان اللذان يقومان على حراسة المدخل) وقرب منتصفها يقع الجزء المكشوف من البلدة، ويتفرع منه عدد من الشوارع يبلغ من الكثرة حدّا يجعلك تتخيل، حينما تمر بها، أنك في بلاد أخرى، مع أنك ما زلت فيها. ولما تقدمت قليلاً، وجدتني في الحي الذي أُطلق عليه اسم الإسكندر - يقصد الحي الإغريقي - وقد قسمت هذه المدينة الرائعة إلى مربعات صف من الأعمدة يقطعه صف آخر مساو له في الطول بزاوية قائمة... وقد جُلت في شوارعها فلم يشبع مني النظر أيضًا. لقد راعني شيئين غريبان شاذان بصفة خاصة - وكان يستحيل على أن أحدد أيهما أعظم حجم المكان أم جماله، المدينة نفسها أم سكانها، فالمدينة كانت أكبر من قارة، والسكان يفوقون الأمة عددًا. ولما تطلعت إلى المدينة شككت في أن يتمكن أي جنس من الأجناس من أن يملأها، ولما نظرت إلى أهلها سألت نفسي إن كان يمكن لأي مدينة أن تتسع فتستوعب هؤلاء جميعًا. ومع ذلك فقد بدا التوازن تامًا في كل شيء".

هكذا نجح البطالمة في جعل الإسكندرية مبهرة، فقد أصبحت أكبر مدينة في العالم بعد تأسيس الإسكندر لها سنة ٣٣١ ق.م بقرن. وتكونت من ثلاثة أحياء أساسية الحي اليوناني ويقع على الساحل، والحي المصري الوطني في الغرب، والحي اليهودي في الشرق. بالإضافة إلى أحياء الوافدين، وكانت هذه الأحياء مدنًا قائمة بذاتها. وهو ما يكرس العنصرية البطلمية أو الرومانية ضد المصريين من خلال العزل المدينى، وليس هناك وجه للمقارنة بين أحياء المدينة المنفصلة. فقد بني الإسكندر وكل من تبعه من البطالمة والرومان قصورهم الخاصة كوسيلة لزيادة فخامة المدينة بشكل متصاعد. فاحتلت القصور ما بين ربع وثلث المدينة. وكان بها إستاد ضخم، ومسرح مدرج، وحدائق عامة غناء، وفنار عده القدماء إحدى عجائب الدنيا.

تعكس الإسكندرية فلسفة السلطة في الحضارة الهلنستية التي تسعى إلى تجميل الحياة باعتبارها أثرًا تالدًا أو فنًا أو فكرًا أو قوة، وهو ما جعل المدن الهلنستية ومنها الإسكندرية تفتقد التفاعل الإنساني والتلقائية، لخضوعها لفكرة النظام الصارم والقوة المتنامية، واستعيض في الإسكندرية المدينة ذات الفخامة والإبهار المطلقين عن البشر بالصروح، وعن الإحساس بالفن بالمتاحف، وعن الشعراء بالقصور حتى تحولت المدينة إلى عمل فني، وتحول الناس من فاعلين مؤثرين، إلى متفرجين مشغولين لا ينتهي بصرهم من التأمل في كل شيء، وسعى الحكام إلى هذا فجعلوا على سبيل المثال مواكبهم حدث ينتظره الناس بشغف لمشاهدته، وحاولوا أن يبلغوا به حدّا لا نستطيع أن نراه في أي عنصر آخر.

مراجع للاطلاع:

- خالد عزب (٢٠٠٧). **دار السلطنة في مصر: العمارة والتحولات السياسية**. القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة.
- خالد عزب (٢٠٠٨). **الحجر والصولجان: السياسة والعمارة الإسلامية**. القاهرة: دار الشروق.
- خالد عزب (٢٠١٣)، **فقه العمران: العمارة والمجتمع والدولة في الحضارة الإسلامية**. القاهرة: الدار المصرية اللبنانية.
- خالد عزب (٢٠١٣). **السياسة الشرعية وفقه العمارة: الحدود الفاصلة والمشتركة** (مراصد؛ كراسات علمية ١٦). الإسكندرية: مكتبة الإسكندرية.